



عند كل منعطف ميداني ينتكس فيه نظام الأسد، وعند كل جهد سياسي دولي أو إقليمي لحل أزمة الحكم في سوريا، يجري الحديث عن ضرورة الحفاظ على مؤسسات الدولة في إطار أي سيناريو يطيح ببشار الأسد، وتحت غطاء هذه "الضرورة" تمارس ضغوط أمريكية وغربية على الدول الإقليمية والجهات والفصائل السورية لعرقلة تقدم الثوار، والسعى لإجبارهم على الدخول في تسوية قائمة على الشراكة مع النظام حسراً، وهذا المسعى بالمناسبة يتواصل منذ إعلان جنيف 2012 دون كل أو ملل.

والشراكة المشار إليها في بيان جنيف تحت اسم "هيئة الحكم الانتقالي" المشكلة من النظام والمعارضة معاً، تعني بالضرورة منع استبداله بصورة كافية، حتى ولو تضمنت عملية الاستبدال هذه "الحفاظ على مؤسسات الدولة"، كالجيش والأجهزة الأمنية، وهي المعنى الوحيد لقولهم "مؤسسات الدولة"، ما يثبت قطعاً أن تلك الذريعة ليست سوى غطاء للتأمر على ثورة الشعب السوري ومطالبه بالحرية والكرامة والديمقراطية.

وبالرغم من ذلك، وعلى فرض "حسن النوايا" في طرح هذه الذريعة، تأتي مجزرة دوما ذات 130 شهيداً، ويندى لها جبين المجتمع الدولي ومجلس الأمن، كأحدث جرائم الأسد الإرهابية المنظمة التي يرتكبها عبر ذات المؤسسات التي تشعر عواصم المجتمع "المتحضر" بالقلق عليها، لطرح سؤالاً مهماً في هذا السياق، هل يعد الجيش بطائراته ودباباته والشرطة والأمن الدمويين، والمؤسسات المتواحشة على هذا النحو أهم وأغلقى من دماء شعب لا زال ينزف منذ قمع الانتفاضة الأولى 1980، وقارب عدده ضحاياه من نصف مليون، وإنسانية لا زالت تتمهن منذ الإعلان عن انقلاب البعث عام 1963؟

يخشى البعض، وهو محق في خشيته، من اندلاع فوضى عارمة وتحفيز مشاريع التقسيم وصعود الولاءات الضيقية وقيام

كانتونات متناقضة بعد انهيار الدولة ومؤسساتها، إذا تم اعتماد سيناريو إسقاط النظام بأي ثمن، على طريقة استئصال الورم الخبيث، فالأسد والدائرة الضيقة حولهم استطاعوا أن يخلقا نوعاً من التماهي بينهم، كشبكة مهيمنة على مفاصل الحكم، وبين الدولة السورية "الحديثة"، كمؤسسات راسخة بنيت خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ومن ثم فإن مطلب إسقاط الأسد والmafia التي يستند إليها نظام حكمه يتطلب حتماً إسقاط الدولة وتفتيت مؤسساتها، لا سيما تلك التي تمثل مفاصل القوة.

من المفيد هنا مشاهدة الواقع السوري الحالي المتصل بقضية الدولة كما هو، إذ لا يحمل ما يمكن أن يفضل على الواقع المفترض، حال انهيار النظام، إلا قليلاً، بالنظر إلى أن المناطق الخاضعة للنظام صعدت فيها جماعات وميليشيات استطاعت بفضل ظروف الحرب وأجواء الاستنفار المزمن، وحاجة المافيا الحاكمة إليها بشدة، أن تفرض نفسها كنـدـ الدولة، وباتت تفرض أحكامها الخاصة وممارساتها التي تعد من اختصاص الدولة في مناطق نفوذها، كشبكات الشبيحة وميليشيا الدفاع الوطني، وميليشيات عراقية ولبنانية شيعية، وليس سليمان الأسد وقصة اعتقاله ثم إطلاق سراحه عنا ببعيد.

كما أن المناطق المحررة من قبضة "جيش الأسد" نمت فيها مؤسسات وليدة، بعضها متغير وبعضها ثابت كفاءته، وبعضها يشوبه الكثير من الإشكالات، إلى جانب نفوذ الفصائل العسكرية المسلحة، وتنوع مشاربها، ورغم تناحر القليل منها، فإن الأكثـرـية العظمى تتمسك بالتنسيق الميداني، وتجـنـجـ دومـاـ على الرغم من كثرة الإشكالـاتـ، إلى حلـهاـ بطـرـيـقـ تـرـضـيـ الجميعـ.

فالصورة إذن في المناطق المحررة ليست وردية، ولكنها ليست قائمة تماماً، وهي على كل حال لن تتأثر بسقوط النظام وإنما ينـهـيـهـ مؤسسـاتـ البـطـشـ وـالـدـمـ الـيـمـلـكـهاـ،ـ كماـ سـيـكـونـ الـحـالـ بـالـنـسـبـةـ لـالـمـنـاطـقـ الـخـاـصـةـ لـهـؤـلـئـكـ المؤسسـاتـ،ـ وـهـوـ تـأـيـيـرـ كـمـاـ أـوـضـحـتـ يـبـقـيـ أـهـونـ بـكـثـيرـ مـنـ اـسـتـمـارـ بـرـكـانـ الـحـقـ وـالـطـائـفـةـ وـالـتـمـسـكـ بـالـسـلـطـةـ بـإـلـاءـ حـمـمـهـ عـلـىـ أـكـثـرـ الـشـعـبـ السـوـرـيـ،ـ وـأـمـوـنـ مـنـ اـسـتـمـارـ شـلـالـ الدـمـ السـوـرـيـ،ـ وـنـزـيفـ الـكـرـامـةـ وـالـإـنـسـانـيـةـ الـتـيـ لـمـ تـنـضـبـ بـعـدـ فـيـ صـدـورـ الـشـعـبـ رـغـمـ جـرـاحـهـ وـمـعـانـاتـهـ الـفـاسـيـةـ.

الدولة بطبعتها نظام، أي يفرضه الناس على أنفسهم ولا يوجد بموجب الصدفة. والنظام بهذا المعنى لم يكن يوماً غاية بنفسه، بل هو وسيلة لتحقيق غاية أخرى، مرتبطة بالإنسان وأهداف وجوده على الأرض، وتحقيق قيم العدل والتعايش في مجتمع مستقر، والدولة التي لا تحقق مصلحة الإنسان وتوزن بين الفرد والمجتمع دون ظلم أو تعسف لا حاجة له بها، نقول هذا ونحن نجزم أن الأسد وزمرته ليسوا الدولة السورية، ومهما ارتبط مصيرهم بها فإنه لن يكون مدعـاةـ سـوـىـ لمـزـيدـ منـ الثـورـةـ عـلـىـ هـذـاـ الـوـاقـعـ الـمـشـوـهـ،ـ وـالـدـوـلـةـ الـمـمـسـوـخـةـ،ـ عـلـىـ الأـقـلـ لـاستـعـادـتـهاـ مـمـنـ خـطـفـهـاـ وـخـلـقـ ثـرـوـتـهـ عـنـ طـرـيـقـهاـ،ـ وـحـولـهـاـ فـوـقـ كلـ ذـلـكـ إـلـىـ أـدـاءـ عـائـلـيـةـ يـسـوـمـ بـهـاـ الـشـعـبـ سـوـءـ العـذـابـ.

هـافـينـغـتونـ بوـسـتـ

المصادر: